الحرب على إيران وسقوط فرضية نهاية الجغرافية السياسية

م. د عبدالله رشيد الربيعي

استاذ الدراسات الدولية - جامعة بغداد _كلية العلوم السياسية

مؤسسة إنكي للدراسات والبحوث

Enki Foundation for Studies and Research

مقدمة

شكلت الجغرافية السياسية تاريخيا أحد أبرز المحددات المؤثرة في سلوك الدول، سواء في سياقات الهجوم أو الدفاع. فقد ارتبطت قوة الدولة وقدرتها على البقاء بجملة من العوامل الجغرافية، تشمل عدد السكان، والمساحة، والعمق الجغرافي، والموارد الطبيعية، والموقع الاستراتيجي، فضلًا عن طبيعة التضاريس والحدود الطبيعية. وقد أسهمت هذه العناصر في تشكيل موازين القوة بين الدول، إذ يؤثر العمق الجغرافي وطبيعة الأرض—من جبال وسهول وصحارى—في قدرة الدولة على الدفاع عن أراضيها ورفع كلفة الاختراق العسكري، الأمر الذي جعل الجغرافية عنصرا جوهريا في معادلات الأمن والصراع الدولي.

وقد ظل تأثير الجغرافية السياسية حاضرًا بقوة في تفسير العلاقات الدولية، قبل أن يتم تأطيره أكاديميا ضمن نظريات تفسير القوة والصراع. غير أن التطور التكنولوجي، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، أحدث تحولات عميقة في طبيعة الحروب وأدواتها، في ظل ما عُرف بعسكرة التكنولوجيا وتطور القدرات القتالية. وقد تعزز هذا المسار خلال الحرب الباردة

مع تصاعد سباق التسلح بين القوتيين العظميين، وصولا إلى مرحلة الهيمنة الأمريكية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، حيث برز التفوق العسكري والتكنولوجي الأمريكي بصورة واضحة، ولا سيما خلال حرب الخليج عام 1991م، من خلال الاستخدام المكثف للقوة الجوية، والصواريخ الدقيقة، وأنظمة الأقمار الصناعية.

ومع التطور المتسارع في التكنولوجيا العسكرية، بما في ذلك إدخال الذكاء الاصطناعي في إدارة العمليات القتالية، ظهرت أطروحات فكرية تفترض تراجع أهمية الجغرافية السياسية، انطلاقًا من الاعتقاد بأن التكنولوجيا الحديثة باتت قادرة على تجاوز قيود المكان والمسافة والحدود الطبيعية، بما يجعل تأثير الجغرافية أقل حضورا في حسابات القوة المعاصرة. غير أن التطورات الأخيرة، ولا سيما في سياق المواجهة مع إيران، أعادت طرح تساؤل جوهري حول مدى صحة هذه الفرضية، وما إذا كانت التكنولوجيا قادرة فعلا على تجاوز محددات الجغرافيا السياسية.

ايران كحالة جغرافية معقدة

تمثل إيران نموذجاً يصعب فهمه من خلال البعد العسكري وحده، إذ إن عناصر قوتها لا تقتصر على قدراتها العسكرية التقليدية(صواريخها البالستية وحلفائها الإقليميين)، بل تمتد إلى طبيعتها الجغرافية وتركيبتها الاستراتيجية. فإيران تمتلك مساحة جغرافية واسعة(تقدر بحوالي 1648كم2)، وقوة بشرية كبيرة يتجاوز تسعين مليون نسمة، فضلًا عن تضاريس معقدة تتنوع بين الجبال والصحارى والمرتفعات والغابات، بما يفرض تحديات كبيرة أمام أي محاولة للحسم العسكري

«التفوق التكنولوجي لا يعني بالضرورة القدرة على تحقيق حسم سياسي أو استراتيجي سريع... فالقدرة على التدمير لا تعني بالضرورة القدرة على السيطرة أو الإخضاع الكامل.»

السريع. كما تتمتع إيران بموقع مهم يربط الخليج العربي بآسيا الوسطى والقوقاز والفضاء الأوراسي، إضافة إلى إشرافها على مضيق هرمز وبحر عُمان، وهما من أهم الممرات البحرية المرتبطة بالطاقة والتجارة الدولية. وإلى جانب ذلك، تمتلك موارد اقتصادية وطبيعية كبيرة، خصوصا في مجالي النفط والغاز، الأمر الذي يمنحها أهمية جيوسياسية تتجاوز حدودها الإقليمية.

حدود الحسم التكنولوجي أمام تعقيدات الجغرافية

وفي هذا السياق، أعادت المواجهة مع إيران اختبار فرضية الحسم التكنولوجي بصورة عملية. فعلى الرغم من التفوق العسكري والتقني الكبير الذي تمتلكه الولايات المتحدة وإسرائيل، أظهرت التطورات أن التفوق التكنولوجي لا يعني بالضرورة القدرة على تحقيق حسم سياسي أو استراتيجي سريع. إذ إن اتساع المجال الجغرافي الإيراني، وتعقيد تضاريسه، وعمقه السكاني والاستراتيجي، جميعها عوامل حدت من قدرة القوة العسكرية المتطورة على فرض نتائج نهائية وحاسمة.

ومن هنا، كشفت هذه التطورات عن حدود القوة التكنولوجية عندما تواجه بيئة جغرافية معقدة، إذ إن القدرة على التدمير لا تعني بالضرورة القدرة على السيطرة أو الإخضاع الكامل. ولذلك أعادت هذه المواجهات الاعتبار لفكرة مركزية في الجغرافية السياسية الكلاسيكية، مفادها أن التكنولوجيا، مهما بلغت درجة تطورها، لا تستطيع إلغاء أثر الجغرافية أو تجاوز حضورها في تشكيل الصراعات الدولية.

خاتمة

تكشف الحرب الاميركية_الإسرائيلية على إيران، أن الجغرافية السياسية ما تزال تمثل عنصراً حاسماً في تفسير

طبيعة الصراعات الدولية ونتائجها. فعلى الرغم من التطور الكبير في التكنولوجية العسكرية، فإن التجارب العملية أظهرت أن التفوق التقني وحده لا يكفي لتحقيق الحسم الكامل، بل مازالت العوامل الجغرافية قادرة على إعادة تشكيل مسارات الصراع وحدود القوة.

وبذلك، يتضح أن الجغرافية السياسية لم تفقد أهميتها كما افترضت بعض الأطروحات، بل إن التطور التكنولوجي أعاد صياغة دورها ضمن أنماط جديدة من التفاعل بين القوة والتكنولوجيا والمجال الجغرافي. ومن ثم، فإن فهم الصراعات المعاصرة يظل مرتبطاً بقدرة التحليل السياسي على الجمع بين أثر التكنولوجيا واستمرار فاعلية الجغرافيا السياسية في بنية النظام الدولي. باختصار، فإيران لم تكتفِ بالاستفادة من جغرافيتها السياسية، بل نجحت في تحويلها قوة جيوبولتيكية للتأثير في التفاوض والتوازنات الإقليمية.